أدب الرحلات عند الطنطاوي

بقلم: صدقي البيك
فلسطين

كان لفضيلة الشيخ والأستاذ الأديب علي الطنطاوي رحمه الله، دور بارز ومتميز في ميدان الرحلات، لكثرة رحلاته وتنوعها واتساع مداها، ولتناوله لهذه الرحلات فيما كتب من مقالات وما نشر من مؤلفات.

وقد بدأ رحلاته مبكراً، فبعد حصوله على شهادة الثانوية العامة «البكالوريا» سنة ١٩٢٨م، كثرت رحلاته إلى دول مجاورة أو بعيدة، وتعددت وتنوعت أهدافها بين طلب العلم والعمل والعبادة والاكتشاف والدعوة، والعمل لقضايا الأمة والمشاركة في المؤتمرات الإسلامية.

ولو اقتصرت رحلاته هذه على تحقيق ما هدف إليه منها لنسيها هو ولم نذكرها نحن، ولكنه عمد إلى الحديث عنها، والكتابة فيها، كما فعل الشعراء في ارتحالهم، والمستكشفون في جولاتهم.

والشيخ الأديب علي الطنطاوي ذو قلم سيال إذا كتب، ولسان ذرب إذا تحدث، وخيال مجنح ونفس مرهفة وعين دقيقة في التقاط كل جديد وعجيب ومثير ومؤثر، كما أن ذاكرته قوية في الاحتفاظ بما يراه أو يسمعه أو يدركه، فقد بقي متوقد الذهن يستعيد المشاهد، حتى حين بدأ يكتب ذكرياته، أو يتحدث عن رحلاته بعد مضي نصف قرن على بعضها.

لقد جوَّب في الآفاق، فزار مصر والعراق والحجاز مراراً، كما زار إيران وباكستان والهند وسنغافورة وماليزيا وأندونيسيا، وزار ألمانيا وأماكن أخرى، ولم يفته أبداً أن يتحدث أو أن يكتب عن كل زياراته هذه، حتى استغرقت قسماً كبيراً من حلقات ذكرياته، كما شغلت حيزاً كبيراً من أحاديثه الإذاعية والتلفزيونية، وأصدر حولها عدة كتب سجلها بأسلوبه الأدبي الجذاب.

تنوع ما يتناوله في رحلاته

وهو في حديثه عن رحلاته لم يكن يكتفي بذكر جمال طبيعة البلاد التي يزورها أو قسوة الظروف التي يعانيها، بل كان يبرز دائماً ما خلفته هذه الديار من أثر في مشاعره وأحاسيسه، ويستعرض أحياناً تاريخ تلك البلاد بإيجاز، ودخول الإسلام إليها، والظروف الاجتماعية التي يعيشها الشعب فيها، وعاداته وتقاليده، وما قام به من بطولات وما قدمه من تضحيات حتى تحرر من الاستعمار، فهو يقول «وأنا حين أهم بالكتابة عن بلد لا أصف طبيعة أرضه، ولا تحديد مساحته وحاصلاته، ولكن أحاول أن أصف مدى شعوري به ومبلغ ماله في نفسي»[١].

وقد تحدث بتفصيل أو بإيجاز في «ذكرياته» عن زيارته إلى مصر مروراً بفلسطين[٢] وعن زيارته إلى بغداد سنة ١٩٣٦[٣] وعن زيارته إلى القدس ١٩٥٤ [٤]، وإلى كراتشي ودلهي[٥] وسنغافورة وماليزيا[٦] وأخرى إلى ألمانيا ١٩٧٠[٧]، كما تحدث عن قدومه إلى الرياض[٨].

رحلته عبر صحراء الحجاز

ولكثرة رحلات الشيخ علي الطنطاوي، فلن أتناول منها إلا رحلتين:

أما الأولى منهما فهي رحلته إلى قلب الصحراء التي لم يكن فيها طريق مسفلت ولا ممهد، وقد اضطر ورفاقه في الرحلة إلى أن يبعدوا عن الطرق المسلوكة، فامتطوا خمس سيارات

وانطلقت القافلة من دمشق عام ١٣٥٣هـ (١٩٣٤م) لاكتشاف طريق بري للحج بالسيارات يربط الشام بمكة المكرمة، وحالت السلطة في شرقي الأردن أيام الاحتلال الإنكليزي دون مرورهم فيها، فاضطروا إلى الضرب في أعماق البادية، مبتعدين عن المناطق المأهولة أو الخاضعة لسيطرة أبي حنيك «غلوب باشا»، ولاقوا في ذلك الطريق أهوالاً ومشاق تتضاءل أمامها معاناة المسافرين على الجمال! فالطريق بين دمشق ومكة يقطعها راكب السيارة حديثاً في أقل من يوم، ولكنهم قضوا ثمانية وخمسين يوماً في رحلتهم تلك.

فقدانه مذكرات الرحلة

وقد كان الطنطاوي عازماً على تسجيل رحلته هذه وتدوين كل ما يلاقيه فيها أو يطلع عليه من معالم جغرافية واجتماعية، يقول: «وعزمت أن أدون الرحلة ولا أكتفي بما تحمل ذاكرتي، فاتخذت دفتراً كتبت فيه كل طريق مشينا فيه، وكل جبل مررنا به، وكل أرض حللنا بها، ودونت أنساب وعادات وأحوال من لقينا فيها» وهو بذلك يحاول أن يجعل وصف رحلته أدق وأعمق ما يكون.. ولكنه فقد دفتره هذا بكل ما فيه من معلومات قبل وصوله إلى المدينة المنورة! فاضطر إلى الاعتماد، فيما كتب بعد ذلك على ذاكرته، وبعث بمقالاته إلى مجلة «الرسالة» في القاهرة و«ألف باء» في دمشق، كما أنه عاد إلى هذه الرحلة وتحدث عنها في ذكرياته في حدود عشر حلقات من الجزء الثالث.

وهو يصور لنا فيما كتبه عن رحلته هذه الطبيعة القاسية للأراضي التي مر فيها، فهي جبال وصحارى وبواد لم تطأها أقدام مسافرين من قبل، لأنهم اضطروا إلى الابتعاد عن الطرق المسلوكة من قبل، فيقول مثلاً: «وصلنا إلى حرة من أوسع الحرار وأعجبها ملتوية من الأراضي مفروشة بحجارة سوداء لماعة، أكثرها حاد الأطراف كالسكاكين.. وكنا ننزل من السيارة فنزيح الأحجار من طريقها، وإذا بلغنا هضبة لا تقوى السيارة على صعودها ربطنا السيارة بالحبال وجررناها ودفعها ناس من خلفها!! وقطعنا تسعين كيلاً.. خرجنا منها فوجدنا أنفسنا أمام «مركز الأزرق» الحدودي الذي هربنا منه»[٩].

عيوب الرحلة

ويقول في مكان آخر «حتى الطبيعة من حولنا لا أحس منها إلا ما يبعث الخوف وينفي الأمان: تلال الرمل وصخور الجبال، وأرض تشتعل رمضاؤها وتنفث لهباً سماؤها، وسراب رأيته أول مرة فحسبته ماء.. فهو كالشهرة والمجد والجاه.. يتمناها المحروم ولا يشعر بالمتعة بها من أوتيها»[١٠].

ولم يتحرج عن ذكر عيوب هذه القافلة وسلبياتها وأخطائها ونواقصها، فلم يكن معهم خريطة للمنطقة ولا بوصلة، ولا أمير للركب «وكنا كعادتنا دائماً: كنا جميعاً أمراء!! فكانت رحلتنا مثلاً في باب عدم التنظيم، أي أنها المثل الكامل للفوضى [١١]. وفوق كل ذلك اتخذوا دليلاً في الصحراء، تبين لهم بعد فوات الأوان، أنه جاهل لا يعرف الطرق، ولم يركب في هذه الصحراء سيارة من قبل، أو أنه قليل الخبرة ولكنه خير منهم، فهم لا خبرة لهم.

في مركز حدود السعودية

وكان يقف طويلاً عند عادات أهل البادية الذي مروا بهم، فوصفهم ووصف مساكنهم ومعيشتهم وتقاليدهم، فيقول عن وصولهم إلى أول مركز حدود للمملكة العربية السعودية: «رأينا ثلاثة شبان بأثواب عربية فوقها رداء عسكري، يهبطون لاستقبالنا، بوجوه يشرق فيها الكرم.. وعليهم مناطق الرصاص وبأيديهم بنادق جديدة وعليها كتابة قرأتها فإذا هي «وقف لله تعالى وقفه عبد العزيز..» وساروا أمامنا حتى بلغنا الخباء في أعلى التل، فإذا فيه البسط والجلود ورحل جمل يتكئ عليه الجالس، وفي وسط الخباء حفرة فيها نار موقدة حولها دلال القهوة.. وواجبهم الرسمي أن يتحققوا من أسمائنا ويستقروا أحوالنا وهم في حيرة من أمرهم بين هذا الواجب الرسمي وبين كرم المضيف، حتى حل هذه المشكلة كبير الرحلة الشيخ ياسين الرواف فأطلعهم على الجوازات، وبعد أن أدوا واجب الوظيفة تفرغوا لأداء واجب الضيافة العربية» [١٢].

مساجد القريات

كما أنه يصف المساجد في «القريات» [١٣] في تلك الأيام فيقول «والمساجد خالية من الزخارف دانية السقوف، تقوم سقفها على عمد كثيرة متقاربة من جذوع النخل ومن اللبن، وأرضها مفروشة بالرمل، لا سجادة ولا بساط ولا حصير!!» ولا يسكت عما يرى أنه مخالف لرأيه فيقول: «أنا رجل سلفي، ولكني لست ظاهرياً أتمسك بحرفية النص وأحبس نفسي في حدود الألفاظ.. فلما كانت أرض البيوت من التراب كانت المساجد كذلك، أما أن نتخذ لبيوتنا أغلى السجاد العجمي و... ثم نجعل أرض المسجد من التراب وندوس عليه بالأحذية.. فلا»[١٤].

مجلس الملك عبدالعزيز

ويتابع رحلته إلى تبوك ثم المدينة فجدة ومكة، حيث أمضوا أسبوعين، ويصف زيارة الوفد للملك عبد العزيز «دخلنا مجلس الملك فقام لنا، وكان يقوم للداخل.. ورأيت أولاد الملك صفاً عن يمينه على ترتيب أعمارهم، ورأيتهم إن جاء أمير منهم تنحى له من هو أصغر منه، ولو بأسبوع حتى يأخذ مكانه بحسب عمره، وكان يدخل عليه من الناس من شاء، وكان أهل البادية يدعونه باسمه «والله يا عبد العزيز!» [١٥].

في تبوك ١٣٥٣ هـ

من مصاعب الرحلة

ولم تكن روحه المرحة تفارقه في كتاباته عن رحلته هذه، وهي روح تشيع في كثير من كتاباته وأحاديثه، فهو يتحدث بعد مفارقتهم تبوك أنهم مروا بجوار خط سكة الحديد والأرض قاسية أو فيها رمال تغوص فيها عجلات السيارات، فاقترح أحدهم أن يستفيدوا من طريق القطار الممهد أو من السكة الملساء المستوية فأعجبهم الاقتراح وجروا السيارات حتى صعدت إلى طريق القطار، وبذلوا في ذلك جهداً كبيراً لأن جنبات الطريق شديدة الانحدار، فلما وصلوا وسارت السيارات فوق الطريق لاقوا من الاهتزازات العنيفة بسبب العوارض التي تمسك القضبان الحديدية، فكانت أقسى عليهم من الحفر ومن الصخور، فآثروا بعد ذلك السير على الأرض، وتركوا خط القطار! وأنزلوا السيارات فلاقوا في إنزالها أشد مما لاقوا في رفعها، خوفاً من انزلاق السيارات وانقلابها، وما أكثر المشاهد المضحكة في سرده للمواقف العصيبة.

رحلته إلى إندونيسيا

وإذا كانت رحلته إلى الحجاز غلب عليها وصف الطبيعة القاسية وعرض الأهوال والمخاوف التي لاقتها القافلة، فإن له رحلة أخرى أبعد مدى وأطول زمناً وأمتع طبيعة وألين جانباً، إنها رحلته إلى إندونيسيا التي قام بها عام ١٩٥٤م في وفد أرسله المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في القدس لنصرة فلسطين، وشرح القضية للمسلمين ليشاركوا فيها جهاداً بأموالهم.

وقد استغرقت رحلته هذه ثمانية أشهر جال خلالها في أرجاء العالم الإسلامي شرقاً حتى وصل إلى أندونيسيا، مروراً بالعراق وباكستان والهند وبورما وسيام والملايو وسنغافورة، وبعد أن عاد سجل رحلته هذه عبر أحاديثه الإذاعية ومقالاته في مجلة «المسلمون» ثم جمع ما أذاع وما نشر في كتاب اسمه «في إندونيسيا.. صور من الشرق» وتحدث عنها أيضاً في ذكرياته. وهو كلما وصل فيما كتب إلى دولة أو مدينة وقف عند طبيعتها يستجلي جمالها وخضرتها وأنهارها الجارية وجوها اللطيف، وتحدث عن تاريخها الغابر، وعن وصول الإسلام إليها، وتناول واقعها المعاصر من ثوراتها التي أوصلتها إلى الاستقلال، وحركاتها السياسية وتطوراتها الاجتماعية والعمرانية، وعادات شعوبها، وكأنه آلة تصوير للصورة والصوت، مع لمس المشاعر والأحاسيس والعقائد والمواقف.

جاوة جنة الدنيا

فهو عندما وصل إلى جاكرتا رأها جنة الدنيا وعدها «سويسرا الشرق» فيقول: «وليست جنة الدنيا الشام ولا لبنان ولا سويسرا، ولكنها جاوة، من رآها فقد علم أني أقول حقاً، ومن لم يرها لم يغنه عن مرآها البيان. أمضيت فيها يومين ما رأيت في حياتي يومين كانا أمتع لنفسي متعة وأحلى في عيني منظراً وأبقى في قلبي أثراً منهما، قطعت فيها الجزيرة بالقطار في طريق ما رأيت ولا سمعت، ولا أظن أني سأرى أو أسمع أن في الدنيا طريقاً أجمل منه!»[١٦].

وكان يقف في وصفه عند بعض مغانيها فيصور بقلمه جمالها.

بين الماضي والحاضر

وهو يتناول في الحديث عن إندونيسيا، دخول الإسلام إليها من قبل ٦٥٠ سنة أي قبل أن يصل إليها ابن بطوطة في رحلته الطويلة، على أيدي التجار المسلمين، وقيام دولة إسلامية فيها صارعت بعد ذلك الاستعمار البرتغالي ثم الهولندي، واستئنافها الثورة في أواسط القرن العشرين حتى نالت استقلالها عام ١٩٤٥م. ولم ينس أن يعقد فصلاً للحديث عن وصف ابن بطوطة لجزيرة الجاوة «يقصد سومطرة» وإبرازه جمالها وأنواع أشجارها وعادات أهلها وملابسهم في تلك الأيام..

كما تحدث عن واقعها السياسي ودور الحركة الإسلامية والجمعيات والأحزاب الإسلامية ومنها شركة إسلام، والجمعية المحمدية، ومجلس الشورى الإسلامي «حزب ما شومي»، وجمعية نهضة العلماء، والجماعة الإسلامية، كما تحدث عن «دار الإسلام» في إحدى جزر إندونيسيا، وعن الحركات التنصيرية فيها والمدارس الأهلية والإسلامية.

مشاهد من إندونيسيا

ويتناول عادات أهلها وطباعهم فيقول: «والقوم في إندونيسيا أرق الناس نفساً وأرهفهم حساً لا يحتملون شدة ولا عنفاً، ولقد لمت السائق مرة على ذنب أذنبه ورفعت صوتي عليه فبقي أياماً متألماً. وما سمعت في إندونيسيا ضجة، فالشوارع تكاد تكون هادئة، والكلام يكاد يكون همساً، وما رأيت فيها «خناقة»، والخناقات في الشوارع مقياس أعصاب الأمم.. وفيها لا يكون سبّ أبداً لأن لغتهم، كما أظن، خالية من ألفاظ السباب!!»[١٧]

الشيخ علي الطنطاوي يخطب لشرح قضية فلسطين في إندونيسيا

ويتحدث عن وسائل النقل في داخل جاكرتا، وأكثرها انتشاراً الدراجات، حتى ظن ورفيقه عند جولته الأولى فيها أن هناك موسم سباق بالدراجات «الهوائية» وهي «يركبها الصغير والكبير والرجل والمرأة، وربما أردفت الفتاة وراءها أخرى أو رجالاً، لا يرون في ذلك بأساً، وإن بدا من الراكبة ما تخفي الفتاة عادة شرعاً من أعضائها، وأغرب من ذلك «في التكشف» أن فيها نهراً فيه ماء قليل ينزل إليه الرجال والنساء عراة إلا ما يستر السوأة الكبرى، فيغتسلون معاً.. ولم أجد من ينكر عليهم هذا المنكر!!»[١٨]

وهذا من استطرادات الطنطاوي التي اشتهر بها في أحاديثه وفي كتاباته أيضاً! ثم يعود ليكمل حديثه عن وسيلة نقل أخرى هي «الركشة» وهي «عربة صغيرة لها مقعدان يجرها إنسان يعدو بها حتى يتصبب عرقاً ويلهث تعباً» ثم يذكر أنواعها المتطورة ويقارن بينها وبين مثيلاتها في كلكتا وكراتشي.

عَجَبٌ من عجب

ويصف احتفال المسلمين بعيد نزول القرآن ويحددون له يوم ١٧ رمضان و«يجعلونه أكبر أعيادهم، ويحتفلون به احتفالاً ضخماً في القاعة الكبرى من قصر الرئاسة، ويشترك رجالهم ونساؤهم في الاحتفال، يجلس الرجال في المقاعد اليمنى والنساء في المقاعد اليسرى، لا يتجاورون في المجالس، وأكثر النساء الحاضرات قد ألقين المناديل على رؤوسهن، فسترن بها شعورهن. وافتتحت الحفلة بآيات من القرآن تلتها قائمة أمام المذياع زوجة الرئيس سوكارنو، بصوت رخيم وقراءة فصيحة صحيحة المخارج. وقد عجبت من قراءتها القرآن دون الرجال فعجبوا من عجبي!» [١٩].

نبات أم بنات؟

ويصف ملابس النساء في ثنايا عرضه لجمال الطبيعة فيقول واصفاً ما يراه عبر نافذة القطار «فكانت عن يسارنا مزارع الرز، وعن أيماننا الجبال تلبس فروة خضراء تتزاحم على سفوحها وذراها عمالقة الأشجار، يمشي في موكبها وبين أرجلها آلاف من أنواع النبات، فمن دخل هذه الغابات لم تره عين الشمس، ولم ير هو وجه السماء، لأنه يكون تحت سبعة سقوف من الأغصان والأوراق، ورأيت الزهر خلال نبات الأرز كالشقائق الحمر خلال خضرة القمح في بلادنا، فلما دنا بنا من ذلك القطار، رأينا ما حسبناه زهراً ليس بالزهر، وما ظنناه من النبات إنما هو البنات الحاصدات بأزرهن الملونة «الفوط» التي تحكي الزهر بنقشها ولونها، وعلى رؤوسهن قبعات الخوص الكبار، كأنها المظلات الملونة المنقوشة» [٢٠]